«اَلتَّحْسِيسُ بِمَخَاطِرِ الْعُنفِ ضِدَّ النِّسَاءِ»

اَلْخُطْبَةُ الْأُولَى:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ الْإِنْسَانَ فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ لِبَيَانِ قُدْرَتِهِ، وَجَعَلَ مِنْهُ الزَّوْجَيْنِ الذَّكَرَ وَالْأُنْثَى لِتَنْفِيذِ حِكْمَتِهِ، نَحْمَدُهُ تَعَالَى عَلَى جَلَائِلِ نِعَمِهِ وَعَظِيمِ آلَائِهِ، وَنَشْهَدُ أَنْ لَّا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ الْوَاحِدُ الْفَرْدُ الصَّمَدُ، اَلْغَنِيُّ عَنِ الصَّاحِبَةِ وَالْوَلَدِ، وَنَشْهَدُ أَنَّ سَيِّدَنَا مُحَمَّدًا عَبْدُهُ وَرَسُولُهُ، أَرسَلَهُ بِالْهُدَى وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ، صَلَّى اللَّهُ وَسَلَّمَ عَلَيهِ صَلَاةً وَسَلَامًا تَامَّيْنِ بِتَمَامِ مُلْكِهِ، وَعَلَى آلِهِ الطَّيِّبِينَ الْأَطْهَارِ، وَعَلَى صَحَابَتِهِ الْغُرِّ الْمَيَامِينِ الْأَخْيَارِ، وَعَلَى التَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ فِي سَائِرِ الْأَفْعَالِ وَالْأَقْوَالِ.

أَمَّا بَعدُ -مَعَاشِرَ الْمُؤْمِنِينَ-؛ فَيَقُولُ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «خَيرُكُمْ خَيرُكُمْ لِأَهْلِهِ، وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»؛ فِي هَذَا الْحَدِيثِ النَّبَوِيِّ الشَّرِيفِ تَوْجِيهٌ صَرِيحٌ مِنَ الرَّسُولِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ إِلَى الِاقْتِدَاءِ بِهِ فِي الْمُعَامَلَةِ الْحَسَنَةِ مَعَ الْأَهْلِ؛ وَلِذَا أَكَّدَ بِقَوْلِهِ ﷺ: «وَأَنَا خَيْرُكُمْ لِأَهْلِي»؛ لِأَنَّهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مَحَلُّ الْقُدْوَةِ وَالْأُسْوَةِ لِجَمِيعِ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ.

عِبَادَ اللَّهِ؛ شَاءَتْ حِكْمَةُ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَجْعَلَ الْمَسْؤُولِيَّةَ مُشْتَرَكَةً بَيْنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ فِي إِقَامَةِ الْحَيَاةِ فِي إِطَارِ الْأُسْرَةِ، وَالَّتِي تَتَرَتَّبُ عَلَيْهَا الْحَيَاةُ الطَّيِّبَةُ، ثُمَّ مَسْؤُولِيَّةُ التَّرْبِيَةِ وَالتَّعْلِيمِ، وَالْقِيَامِ بِالشَّأْنِ الْخَاصِّ وَالْعَامِّ، فَجَعَلَ لِكُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا وَظَائِفَ يَقُومُ بِهَا لِأَدَاءِ رِسَالَتِهِ فِي الْحَيَاةِ، وَأَقَامَ الْعَلَاقَةَ بَيْنَهُمَا عَلَى أَسَاسِ السَّكِينَةِ وَالْمَوَدَّةِ وَالرَّحْمَةِ، وَأَمَرَ سُبْحَانَهُ بِالْمُعَاشَرَةِ الْحَسَنَةِ وَالْاحْتِرَامِ الْمُتَبَادَلِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ مَعَ مُرَاعَاةِ خُصُوصِيَّةِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا. وَقَدْ بَيَّنَ الرَّسُولُ ﷺ أَنَّ الْخَيْرِيَّةَ الْحَقِيقِيَّةَ تَكْمُنُ فِي الْمُعَاشَرَةِ الْحَسَنَةِ لِلأَهْلِ؛ وَذَلِكَ بِحُكْمِ الْحَيَاةِ الْمُشْتَرَكَةِ الدَّائِمَةِ، اَلْمُقْتَضِيَةِ لِلصَّبْرِ الْجَمِيلِ، وَالِاعْتِرَافِ بِالْفَضْلِ، وَالتَّغَاضِي عَنِ الْأَخْطَاءِ وَالْهَفَوَاتِ الَّتِي لَا يَخْلُو مِنْهَا إِنْسَانٌ.

وَلَنَا فِي رَسُولِ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ الْأُسْوَةُ الْحَسَنَةُ؛ فَهُوَ الزَّوْجُ الْمِثَالِيُّ الْكَامِلُ الْخُلُقِ، اَلَّذِي تُسْتَمَدُّ مِنْهُ الْأُسْوَةُ وَالْقُدْوَةُ، وَإِذَا كَانَتْ «خُطْبة الجمعة» تُعْنَى بِتَحْقِيقِ الْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ لِلنَّاسِ، فَقَدْ جَاءَتِ الرِّسَالَةُ السَّامِيَةُ تَحُثُّ النَّاسَ عَلَى دِرَاسَةِ السِّيرَةِ وَالسُّنَّةِ النَّبَوِيَّةِ لِلاقْتِدَاءِ؛ فَإِنَّ مِنْ أَهَمِّ الْمَوَاطِنِ الَّتِي تَحْتَاجُ لِلْعِنَايَةِ وَالتَّأَسِّي -وَهِيَ مِنْ صُلْبِ الْعَمَلِ الصَّالِحِ الْمُوجِبِ لِلْحَيَاةِ الطَّيِّبَةِ- اَلعَلَاقَةَ الزَّوْجِيَّةَ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، وَالْعَلَاقَةَ بَيْنَ الرَّجُلِ وَالْمَرْأَةِ عَامَّةً، إِذْ يَنْبَغِي أَنْ تُبْنَى عَلَى الْمُكَارَمَةِ؛ أَيْ: اِسْتِحْضَارِ التَّكْرِيمِ الإِلَهِيِّ لِكُلِّ إِنْسَانٍ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى، وَالتَّعَامُلِ مَعَهُ عَلَى هَذَا الْأَسَاسِ، وَقَدْ أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى عَلَى عِبَادِهِ الرَّحْمَةَ وَالرِّفْقَ بِعِبَادِهِ، وَحَرَّمَ الظُّلْمَ وَالِاعْتِدَاءَ عَلَيْهِمْ.

وَيَكْفِي فِي التَّحْذِيرِ مِنَ الْعُنْفِ ضِدَّ أَيٍّ كَانَ، وَضِدَّ النِّسَاءِ بِصِفَةٍ خَاصَّةٍ، مَا جَاءَ فِي الْحَدِيثِ الْقُدُسِـيِّ: «يَا عِبَادِي؛ إِنِّي حَرَّمْتُ الظُّلْمَ عَلَى نَفْسِي، وَجَعَلْتُهُ بَيْنَكُمْ مُحَرَّمًا، فَلَا تَظَالَـمُواْ»؛ فَفِيهِ بَيانُ خُطُورَةِ الظُّلْمِ وَالِاعْتِدَاءِ عَلَى النَّاسِ، وَأَنَّ الظُّلْمَ لَيْسَ مِنْ صِفَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، وَأَنَّهُ جَلَّ وَعَلَا لَا يُحِبُّ الْـمُتَصِفِينَ بِهِ فِي جَمِيعِ الْأَحْوَالِ؛ فَلَا يَجُوزُ لِلْمُؤْمِنِ أَنْ يَكُونَ مَصْدَرًا لِلشَّرِّ وَالْعُنْفِ ضِدَّ زَوْجَتِهِ لِأَيِّ سَبَبٍ مِنَ الْأَسْبابِ، كَمَا لَا يَجُوزُ لِلْمَرْأَةِ كَذَلِكَ أَنْ تُمَارِسَ عَلَى زَوْجِهَا أَيَّ نَوْعٍ مِنْ أَنْواعِ الْعُنْفِ أَوِ التَّعَسُّفِ بِشَكْلٍ مِنَ الْأَشْكَالِ.

وَلِهَذَا وَرَدَتْ أَحَادِيثُ كَثِيرَةٌ تُوصِي بِتَحَرِّي الدِّينِ وَالتَّقْوَى فِي الْـمُعَامَلَةِ وَالْـمُعاشَرَةِ وَالْـمُصاهَرَةِ، وَتُحَذِّرُ مِنْ أَضْدادِهِمَا؛ مِنْهَا: قَوْلُهُ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «إِذَا خَطَبَ إِلَيْكُمْ مَنْ تَرْضَوْنَ دِينَهُ وَخُلُقَهُ فَزَوِّجُوهُ؛ إِلَّا تَفْعَلُواْ تَكُنْ فِتْنَةٌ فِي الْأَرْضِ وَفَسَادٌ عَرِيضٌ».

وَالْفِتْنَةُ الَّتِي يُحَذِّرُ مِنْهَا هَذَا الْحَدِيثُ النَّبَوِيُّ الشَّرِيفُ هِيَ: مَا يَصْدُرُ مِمَّنْ لَّا دِينَ لَهُ وَلَا خُلُقَ؛ مِنَ التَّصَرُّفَاتِ غَيْرِ الْـمَقْبُولَةِ، وَأَخْطَرُهَا الْعُنْفُ وَالْبُخْلُ بِكُلِّ أَنْواعِهِ، وَعَنِ الْحَسَنِ الْبَصْرِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، وَقَدْ سَأَلَهُ رَجُلٌ: لِـمَنْ يُزَوِّجُ ابْنَتَهُ؟ فَقَالَ: «زَوِّجْهَا رَجُلًا يَتَّقِي اللَّهَ؛ فَإِنَّهُ إِنْ أَحَبَّهَا أَكْرَمَهَا، وَإِنْ أَبْغَضَهَا لَمْ يَظْلِمْهَا».

عِبَادَ اللَّهِ؛ إِنَّ أَفْضَلَ مَا يَتَقَرَّبُ بِهِ الْعَبْدُ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى بَعْدَ الْفَرائِضِ حُسْنُ الْـمُعَاشَرَةِ لِلنَّاسِ، وَأَوْلَى النَّاسِ بِذَلِكَ أَهْلُكَ الَّذِينَ تَأْوِي إِلَيْهِمْ وَيَأْوُونَ إِلَيْكَ، وَتُسْأَلُ عَنْهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَيُسْأَلُونَ عَنْكَ؛ فَلْيَكُنْ خُلُقُ الرَّحْمَةِ وَالرَّأْفَةِ صِفَةً دائِمَةً لِلْمُؤْمِنِ؛ لِيَسْعَدَ وَيُسْعِدَ غَيْرَهُ، ذَكَرًا كَانَ أَوْ أُنْثَى.

نَفَعَنِي اللَّهُ وَإِيَّاكُمْ بِقُرْآنِهِ الْـمُبِينِ، وَبِحَدِيثِ سَيِّدِ الْأَوَّلِينَ وَالْآخِرِينَ، وَآخِرُ دَعْوانَا أَنِ الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.

اَلْخُطْبَةُ الثَّانِيَةُ:

اَلْحَمْدُ لِلَّهِ حَقَّ حَمْدِهِ، وَالصَّلاةُ وَالسَّلَامُ عَلَى نَبِيِّهِ وَعَبْدِهِ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ وَعَلَى آلِهِ وَصَحْبِهِ.

عِبَادَ اللَّهِ؛ إِنَّ مَفْهُومَ الْعُنْفِ مَفْهُومٌ عامٌّ، يُمْكِنُ تَقْسِيمُهُ إِلَى أَنْواعٍ عَدِيدَةٍ؛ نَذْكُرُ مِنْهَا:

اَلْعُنْفَ الْجَسَدِيَّ كَالضَّرْبِ، وَلَا يَلِيقُ بِمَنْ فِي قَلْبِهِ مِثْقالُ ذَرَّةٍ مِنَ الْإِيمَانِ؛ بَلْ وَمِنَ الإِنْسَانِيَّةِ، قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا: «وَمَا ضَرَبَ النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ امْرَأَةً قَطُّ، وَلَا خَادِمًا، وَلَا غَيْرَهُمَا».

اَلْعُنْفَ اللَّفْظِيَّ كَالسَّبِّ وَالشَّتْمِ وَالْقَذْفِ وَالْإِهَانَةِ؛ وَهَذَا لَيْسَ مِنْ أَخْلاقِ الْـمُؤْمِنِ وَلَا الْـمُؤْمِنَةِ؛ إِذْ قَالَ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «سِبَابُ الْـمُسْلِمِ فُسُوقٌ، وَقِتَالُهُ كُفْرٌ»؛ أَيْ: كُفْرٌ وَجُحُودٌ لِنِعَمِ اللهِ عَلَيْهِ.

اَلْعُنْفَ التَّجَسُّسِيَّ؛ وَهُوَ أَخْطَرُهَا فِي زَمَنِ الْهَوَاتِفِ وَالْكَامِيرَاتِ، بِحَيْثُ يَتَجَسَّسُ أَحَدُ الزَّوْجَيْنِ عَلَى الْآخَرِ فِي هَذِهِ الْوَسَائِلِ؛ مِمَّا يَغْرِسُ الشَّكَّ وَسُوءَ الظَّنِّ بَيْنَهُمَا، فَيُمْعِنُ كُلُّ وَاحِدٍ مِنْهُمَا فِي كَشْفِ سِرِّ الْآخَرِ، إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْأُمُورِ الْخَطِيرَةِ الْـمُهَدِّدَةِ لِلْأُسْرَةِ كُلِّهَا، اَلْـمَبْنِيَّةِ عَلَى الظُّنُونِ السَّيِّئَةِ، وَالْأَوْهَامِ الَّتِي يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ فِي قُلُوبِ الْعِبَادِ مِنْ أَجْلِ إِفْسَادِ الْعَلَاقَاتِ بَيْنَهُمْ.

عِبَادَ اللَّهِ؛ اتَّقُوا اللَّهَ وَعلمُوا أَنَّ الْأَوْلَى بِالْـمُؤْمِنِ وَالْـمُؤْمِنَةِ أَنْ يَكُونَ كُلٌّ مِنْهُمَا سَلِيمَ الصَّدْرِ مِنْ أَمْرَاضِ الْقُلُوبِ، سَلِيمَ اللِّسَانِ مِنْ أَعْرَاضِ النَّاسِ، سَلِيمَ الْيَدِ مِنْ حُقُوقِهِمْ، وَخُصُوصًا مَنْ يُعَاشِرُ وَيُجَاوِرُ؛ مِنْ أُمٍّ وَزَوْجَةٍ وَبِنْتٍ وَأُخْتٍ وَكُلِّ أُنْثَى يَتَعَامَلُ مَعَهَا عَلَى أَسَاسِ الِاحْتِرَامِ الْـمُتَبَادَلِ، وَتَأَمَّلُواْ فِي ذَلِكَ قَوْلَ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: «اِسْتَوْصُوا بِالنِّسَاءِ خَيْرًا».

هَذَا؛ وَخَيْرُ مَا نَخْتِمُ بِهِ الْكَلَامَ، وَنَجْعَلُهُ مِسْكَ الْخِتَامِ، أَفْضَلُ الصَّلَاةِ وَأَزْكَى السَّلَامِ، عَلَى النَّبِيِّ الرَّؤُوفِ الرَّحِيمِ، اَلْحَرِيصِ عَلَى الْـمُؤْمِنِينَ، سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ ﷺ، فَاللَّهُمَّ صَلِّ وَسَلِّمْ عَلَى عَبْدِكَ وَنَبِيِّكَ وَصَفِيِّكَ سَيِّدِنَا مُحَمَّدٍ، عَدَدَ خَلْقِكَ وَرِضَى نَفْسِكَ وَزِنَةَ عَرْشِكَ وَمِدَادَ كَلِمَاتِكَ.

وَارْضَ اللَّهُمَّ عَنْ سَادَاتِنَا الْخُنَفَاءِ الْأَرْبَعَةِ الْخُلَفَاءِ؛ أَبِي بَكْرٍ وَعُمَرَ وَعُثْمَانَ وَعَلِيٍّ، وَعَنْ بَاقِي الصَّحَابَةِ مِنَ الْـمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ، وَعَنِ التَّابِعِينَ وَعَنَّا مَعَهُمْ بِمَحْضِ فَضْلِكَ وَكَرَمِكَ يَا رَبَّ الْعَالَـمِينَ.

وَانْصُرِ اللَّهُمَّ بِنَصْرِكَ الْـمُبِينِ، وَتَأْيِيدِكَ الْـمَتِينِ، مَنْ بَسَطْتَ يَدَهُ فِي أَرْضِكَ وَبِلَادِكَ، وَلِيَّ أَمْرِنَا خَادِمَ الْحَرَمَيْنِ الشَّرِيفَيْنِ اَللَّهُمَّ احْفَظْهُ بِالسَّبْعِ الْـمَثَانِي وَالْقُرْآنِ الْعَظِيمِ، وَمَتِّعْهُ اللَّهُمَّ بِتَمَامِ الصِّحَّةِ وَجَمِيلِ الْعَافِيَةِ، وَأَقِرَّ عَيْنَه بِوَلِيِّ عَهْدِهِ إِنَّكَ سَمِيعٌ مُجِيبٌ،

اَللَّهُمَّ ارْحَمْنَا وَارْحَمْ وَالِدِينَا، وَارْحَمْ مَوْتَانَا وَمَوتَى الْـمُسْلِمِينَ، وَاشْفِ مَرْضَانَا وَمَرْضَى الْـمُسْلِمِينَ، وَعَافِ مُبْتَلَانَا وَمُبْتَلَى الْـمُسْلِمِينَ، اَللَّهُمَّ اسْقِنَا الْغَيْثَ وَلَا تَجْعَلْنَا مِنَ الْقَانِطِينَ، اَللَّهُمَّ اسْقِ عِبَادَكَ وَبَهِيمَتَكَ، وَانْشُرْ رَحْمَتَكَ وَأَحْيِ بِلَادَكَ الْـمَيِّتَةَ، رَبَّنَا آتِنَا فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَفِي الْآخِرَةِ حَسَنَةً وَقِنَا عَذَابَ النَّارِ، سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ وَسَلَامٌ عَلَى الْـمُرْسَلِينَ، وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَـمِينَ.